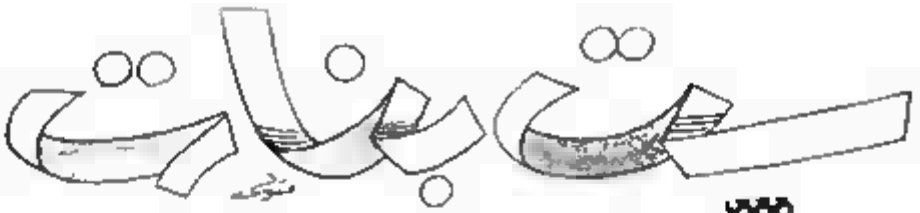

بقلم : د. نجيب الكيلاني

لم يستطع الاستاذ سيد أن يطفيء في حديثه وروحه نوازع الحنين والتفكير في الأشياء على الرغم من أنه قد جاوز الرابعة والخمسين من عمره، لقد خيل اليه بعد وفاة زوجته الحبيبة الصابرة والمهذبة أثناء ولادة متعسرة .. خيل اليه أن كل شيء قد انتهى ، وهل يعقل ان يتفكر لذكراها في هذا العمر المتقدم أو يفكر في الزواج مرة أخرى ؟ وهل يستطيع ان ينسى ان زوجته تركت له ست بنات .. أجل ست بنات دفعة واحدة ليس بينهن ذكر واحد ، تتراوح أعمارهن بين الثالثة ، والخامسة عشرة ، وتطلع (سيد) على الرغم منه للشرفة المقابلة لشرفته اثناء عودته من العمل .. ان الست (وداد) الأرملة ذات التسعة والثلاثين تتألق كعادتها كل يوم ، وتحاصره بنظراتها كانت صديقة المرحومة ولم يستطع سيد ان ينكر أنها كانت تفوق زوجته جمالا وحضارة ، ان طيف الست وداد لايفارق خياله وهو لم يتقدم به العمر كثيرا حتى الشعرات البيضاء التي تناثر في رأسه قليلة العدد ، ان مظهره العام يوحي بأنه كهل في الثالثة والاربعين ... كل معارفه يؤكدون ذلك كما تؤكد المرآة المثبتة في حجرة النوم واحساسه الداخلي يؤكد له أنه يستطيع ان يستمتع بالحياة ويقضي أوقات حلوة لكن آه من ذكرى المرحومة ، وآه من البنات الست .. الخادمة عربت منهن، ولم تتحمل شغبهن وتدليلهن ، حتى شقيقته الأرمل هي الاخرى لم تستطع الحياة معهن أكثر من شهرين ، ثم فرت هاربة ، وهكذا بقين وحيدات الا من أبيهن، انه يقوم بعمل الاب والام والاخت الرشيدة والخادمة ، انه كل شيء بالنسبة لهن .

واختطف الاستاذ سيد نظرة الى شرفة الست وداد .. الحرارة تكاد ترهق الأرواح وهي في الشرفة كنسمة حلوة رخية والليل مقلق متعب ، ووجه وداد يبشر بالراحة والنعيم ، والوحدة قاتلة قاتمة ، ونظرات وداد كلها أنس وسمر وسلوى لكن ما أقسى ذكرى المرحومة ، وما أشق المسئولية ، مسئولية تحمل أعباء البنات الست .

طأطأ سيد رأسه ، وكر على أنفاسه ، وحاول أن يتجاهل النداء الصارخ الذي يبعث من عيني وداد ، وأن يكتم نوازع الاستجابة التي ترتجف لها جسده وقلبه وأسرع الخطى نحو مسكنه وهو يتمتم

ـ والله عال .. يالله حسن الختام .

أيأخذ زماننا وزمان غيرنا ؟ نحن في سن لايجوز عليها سوى الوقار واعداد العدة

تسوات الاخاه على المقاعد واستقر في الآخرة ، وهي مستقبل السات طبعا ..

وحاول حامدا أن يبعد عن ذهنه طيف الست وداد وهو يدس المفتاح في ثقبه المعهود.. قابله السات الستة دفعة واحدة ، وملأن أذنيه بالكلام الكثير المختلط والضجيج الذي لم يستطع أن يميز منه شيئا ، واستطاعت هذه المظاهرة والوجوه الصغيرة التي ترتفع اليه والابتسامات التي تشع في قلبه الأمل والحب ...

استطاعت ان تمزق افكاره السابقة وأن تطغى على صورة الست وداد ، ثم رمت كتف تلك ، وقبل جبين هذه ، وسوى شعر الثالثة ، ومسح على وجه أختها ، ثم تطلع حواليه ، كانت الصالة مليئة بقصاصات ورق مختلف الألوان ، وبعض الاطباق الفارغة ، وعدد من الاحذية والقباقيب المختلفة الاحجام .. وقطع الملابس والامشاط ، وبقايا خبز وطعام ..

وتمتم في شيء من الضيق :

ـ ماهذا .. لكأنكن تعشن في حظيرة بهائم .

وتنهد سيد في حسرة ثم قصد حجرته وخلع ملابسه وارتدى منامته ، وأحضر المكنسة واخذ يكنس ويمسح ، ويرتب الاشياء والعرق يسيل على جبينه الاسمر الشاحب ، ومن آن لآخر يتذكر المرحومة وكيف انها كانت تكفيه مؤونة هذه المشقات ، وتستقبله لدى عودته من العمل باشة باسمة وتهيء له سبل الراحة والاستقرار ، لم يكن يعلم ان عمل البيت ورعاية الاولاد مرهق لهذه الدرجة .. رحمها الله ، كانت فدائية من الطراز الاول .. مستحيل أن تجد مثلها مستحيل حتى وداد نفسها ..

آه .. عدنا مرة ثانية للست وداد ، لعنة الله عليها وعلى كل النساء ما عدا المرحومة ..

وأخيرا جفف عرقه ، وغسل وجهه ويديه ، ثم عرول ناحية المطبخ لاعداد الطعام واستولى عليه الغيظ حينما وجد أن الأواني جميعها لم تغسل بعد ، تنهد مرة ثانية وشمر عن ساعديه .. ولبس (مريلة) الشغل ..

وهكذا لم يستطع الجلوس على المائدة الا بعد السادسة والنصف مساء .. كانت كل عضلة في جسده تصرخ بالتعب والانهاك ، لكنه نظر الى البنات الجالسات حوله وهن يحطفن الطعام في نهم نظرة كلها حنان واشفاق .. انهن بلا أم وهذا يكفي وحده ليجعلهن في مأساة لايشعرن بحقيقتها ، وما كدن يشعرن بالشبع والرى حتى أخذن في سرد مطالبهن واحدة وراء الاخرى :

ـ أريد مسطرة ياباما .

ـ القلم الحبر فقد مني

ـ أريد ممحاة وكراس

ـ قالت لي الآنسة انت ضعيفة في اللغة العربية وهي حاجة الى درس خصوصي .

ـ الساطرة طلبت منا عشرة قروش

ـ مريلتي ممزقة من فوق الكتف

وهكذا .. وهكذا عشرات المطالب والشكاوى التي لابد من البت فيها فورا وبدون تأجيل أو مناقشة ، وسيد في هذا الجو رأسه يدور.. ومطارق الصداع تدق بلا رحمة ، والرغبة في النوم والراحة تحاول ان تطبق جفنيه ..

رحمه الله عليها ... لم يكن يعرف لهـا
قد تموت بين يوم وليلة وكانت لهـا
آمال كثيرة لو كانت تعلم لحاولت على
الأقـل أن تمطيني فترة تدريب ، وان
توجهني ببعض النصائح والارشادات ،
لكنها للاسف ماتت .. ماتت وما اطيب
والغريب انه كان ذكرا .. لاول مرة كان
ذكرا .. لطالما تشوقت اليـه وحلمت
بيوم مقدمه ،ووهب الدور ،والوعود
ولكنه جاء اخيرا وميتا ، واخذها معه ..
انها ارادة الله .

توضأ وصلى بعد أن رفع المائدة ، ثم
أخذ في ترتيب أثوابهن وحواريهن ..
وتلميع احذيتهن .

وكانت صفراء في حاجة للمزيد من
الرعاية ،انها في حاجة دائمة للملابس
نظيفة ، ولغسل لا يتسخ منها ، وهي
دائما تصر على طلب الشيكولاته ، فاذا
ما احضرها لها طلبت الفاكهة ، وقبل ان
تنتهي من تناولها تبكي من أجـل
المشروبات المثلجـة وبعد أن تفـقد
بالزجاجة الفـارغة تطلب قدحا من
الشاى الممزوج بالثلج ..

أجل . لابد .. والا فالبكاء والعويل
والارتواء في ركن .. لاشك ان السبب
وداد واقفة الآن في شرفتها يفوح من
ارداقها العطر وتفتح صدرها الساهد
لنسيم العليل الرطيب ، وتحلم بالرجل
ولا شك انها تعرف ما أنا فيه من عذاب
وتعب ، وقطعا هي الآن تضحك ملء
شدقيها ، وتسخر مني ومن مأساتي ،
وقد تتخامـل على وتتهمني بالرزانة
السمجة ، بل الغباء الشديد ..

وجاء صوت احداهن

ـ بابا ..

ـ نعم

الرنة .. صفراء على الف أم على ثيرة؟

وكان هذا بداية لجولة تفتيشية على
الكتب والكراسـات ، وتأنيب المقصرة
منهن ، والثناء على من نالت الدرجـات
العالية ، وتوضيح ما غمض ، ومساعدة
من تحتاج الى المساعدة ، وهـكذا حتى
قاربت العاشرة مساء .

وحطا الاستاذ سـيد نحو جهـاز
التلفزيون ، كان يريد أن ينسى تعبه
وصداعه ، والصراعات التي ترهق روحه
وجسده .

وصرخ سيد بعد أن فشل في ادارة
الجهاز ، هل أتلفته واحدة منكن ؟
واختلطت الاصوات ..

ـ والله ما انا .. ماني .. لا والله
العظيم .. فيفي ، وحياتك .. بابا
توال .. كذابة انها ثريا ..

وصرخ سيد في غضب

ـ كفى .. كفى يا اولاد المركوب .

وشهقت ماني وانهمرت دموع توال
على خدها ، وجرت ثريا صوب حجـرة
النوم لتختفي الوسـادة وتغرقهـا
بالدموع .. اما صفراء فقد صرخت
الارض بقدميها وهتفت في اصرار

ـ لازم التلفزيون يشتغل .

وصاح سيد باعلى صوته

ـ هيا جميعا الى النوم .

استلقى على سريره واستغرب لحظات
الهدوء المتاحة في عمـلة من الشياطين
الصغار ، وعلى الرغم من ارهاق قـواه
الا أنه بقي متيقظا .

كان يفكر في الغد ، ومطالب البنات
ومشاق عمله بالجمرك ، وهو موظف

هنا بالدرجة الثانية، وازدحام المواصلات وتوصيل الصغيرات للمدارس المختلفة .

ووقع بصره فجأة على صورة الزفاف كانت ثيابها بيضاء كالثلج الحليب .. وكانت صغيرة وخجولا .. عليها مسحة من جمال رادع رقيق .. رحمها الله . وكان وهو يقف بحوارها يتفجر حيوية وشبابا وأملا ..

وبعد سنوات كان كل شيء قد تغير ، هي قد غيبها التراب دون رحمة ، وهو غارق حتى أذنيه في هموم الدنيا .. ومشاكل الحياة .. ليتها أسعد هي في قبرها أم هو في مسكنه .. لا أحد يدري ..

ولكن صورة السبب وداد قد عادت الى وضعها تفرض نفسها فرضا ، تدس أنفها على الرغم منه تأتي دون استئذان أو سابق انذار .

ـ بابا .. بابا .

ـ مالك يا عنايات ؟

ـ أريد أن أشرب .

ـ على عيني ياحبيبتي .

وغادر سريره وقطع احلامه ، ومضى ليحضر لها كوب ماء ثم عاد .. انه يهوى أن يستغرق في النوم دفعة واحدة .. هذا أحسن حل ، وهو في نفس الوقت شيء ضروري وطبيعي حتى يستطيع أن يستعد للغد ..

وسمع صـــيحة مكتومة من الشرفة المقـابلة . الشبابيك والابواب تغلق أو تفتح لا يدري ـ وهي تسمل سمعه

يخرج ؟ .. كيف ؟ لتذهب وداد الى الجحيم .. ان ساعة نوم تساوى عندهم خمسين امرأة مثل وداد .

لكن لماذا لايستيقظ نسيم الليل فى هذا الجو ويحطى بالعفساء الممتد دون حدود ، ولعله يخلصه من ضيقه وكربه .

ـ بابا .. بابا .

ـ ياطول عذاب بابا .

ـ آه عندى مغص ..

واخترع نفسه وقصد الى الصيدلية الصغيرة ووضع فى نصف كوب ماء قطرات من زجاجة صغيرة ، ثم سقاها وعاد بعد أن أطفأ النور .. المأساة تتكرر .. كل ليلة .. هذه تريد الذهاب الى دورة المياه وتحاف العفاريت ، واخرى خائفة من الظلام ، وثالثة تشكو من البراغيث أو البعوض ، والرابعة رأت حلما مفزعا ، فهبت من نومها مذعورة واخذت تبكى والخامسة تشكو من أختها التى سحبت من فوقها الغطاء ، وتركتها للبرد .. وهكذا ينتهى الليل دائما دون أن تغمر عيناه ساعتين أو ثلاثة .

ـ يا أستاذ سيد .. يا أستاذ سيد .

ورثب من سريره قاصدا الشرفة .. لكأنه يهرب الى الصوت الحنون الدافىء الذى ناداه .. انه يعيش بذل الجهد والحنان دون أن تهطل على قلبه قطرات منه .. انه وحده يدوى ويحترق .. يذوب رويدا رويدا .

ـ من ينادى ؟

كان يعرف لكنه يتجاهل .

وغمغمت وداد بينها وبين نفسها ـ

ـ ياابن اللئيمة .. ثم قالت بصوت خفيض لكنه مسموع لديه

ـ كم الساعة ؟

ـ مساء النور .. ساعتى توقفت .

ـ الساعة الواحدة بعد منتصف الليل .

ـ آه .. السهرة طالت .. تصبح على خير ..

ثم قال بدون مناسبة ظاهرة

ـ الاولاد عذبونى .. لم أنم حتى الآن ..

قالت فى اشفاق مصطنع .

ـ مسكين مالك وما للعذاب دا

ـ وماذا اعمل .. لافائدة

ـ ابحث لك عن ست طيبة ترعاهم

ـ أتظنين ان هناك من تحتمل هذا الشقاء .. مستحيل

قالت فى نغمة مبطوطة

ـ أولاد الحلال كثير

ـ ثم استطردت وهى تسحب عازمه على اغلاق باب الشرفة

ـ تصبح على خير ..

وعلى الرغم من الجهد الذى يبذله فى الصباح والمساء فقد استيقظ مبكرا فى اليوم التالى كانت ملامحه تشرق بغير قليل من البهجة والاستبشار واسرع الى المطبخ وأعد طعام الفطور عندما تحلقت حوله الفتيات أخذ يصب الشاى ويقول

ـ مارأيكن ياستات ؟؟ لقد قررت أن أحضر لكن « أبله وداد » انها مثل ماما تمام أصابك اعتراض ؟

وساد المرح والمزح واختلطت الأصوات وهمست الكبرى ياباما ؟؟

ـ صحيح يا حبيبتى .. انها ستريحكن تماما .. أنتن فى حاجة الى قلب طيب مثل قلبها ..

تطلعت اليه فى مكر .. كانت الابتسامة على شفتيها وفى عينيها أيضا وغمغمت فى خبث

ـ الف مبروك ياباما